اسرائيليين كانوا ينسفون منزلاً في احدى القرى، فأطلت عليهم عجوز تسعينية وشتمتهم. وهذا يحدث مثيله كل يوم في قرى الشريط وفي الجنوب، وهو ينطوي على دلالة عميقة تعرفها اسرائيل تماماً، وتعني أن الثورة الفلسطينية كائن حي، مولّد ومكثار، حتى بين أناسٍ بلغوا من العمر تسعيناً.

وقائع البدايات وتفاصيلها

والآن نمضي في ذكر التفاصيل، بادئين بالحدثين الواقعيين التاليين اللذين صارا موضوع تندر في قرى الشريط.

القناع والمكشوف: قبل مدة، انتقل طبيب من بيروت إلى مرجعيون، موفداً من وزارةالصحة لتسلم المستوصف الحكومي. ولدى وصوله سأل عن سعد حداد، فقيل له أنه في مستعمرة المطلة الاسرائيلية القريبة، داخل حدود فلسطين المحتلة، ثم أخذوه إليه. وفي المكان الذي التقاه فيه، راح يحدثه عن نفسه وصفته والمهمة التي جاء من أجلها، وكان مع حداد في الغرفة ضابط اسرائيلي صغير، برتبة ملازم، فقاطع الطبيب وتوجه اليه بلغة عربية فصيحة: «هاي يا معلم.. ماذا تريد؟ تحدث معي أنا لأني الذي يقول لا أو نعم في كل أمر وليس جناب الرائد. أتفهم؟». ولم يطل الوقت حتى عاد الطبيب إلى بيروت، مستغنى عن خدماته.

شاعت حادثة الطبيب، أولاً، في بلدة دير ميماس الواقعة قرب مرجعيون إلى الغرب، ثم انتقلت منها إلى غيرها.

ومرة، كان سكان احدى القرى في الشريط يؤدون صلاة الجمعة ظهراً، وقد امتلأ المسجد فيهم وفاضت الصفوف حتى غطت الدار الخارجية. وفي هذه اللحظات مر مجندون عاملون مع سعد حداد، وكانوا على ما يبدو من غير منطقة الشريط (لعلهم وافدون من المتن أو كسروان للدعم)، فشدهم المشهد ووقفوا يتفرجون، معبرين عن الوانٍ من التعبيرات الساخرة. بعد الصلاة، مضى أشخاص من القرية إلى ضابط المخابرات الاسرائيلي المقيم في المنطقة، يورام، للشكوى، فكان أن طيب خواطرهم وقال لهم: «امور ما إلنا دخل فيها.. تدبروا المسألة مع جناب الرائد حداد...».

وقد جرى التحدث بهذه الواقعة، أولاً، في بلدة كفركلا، المحاذية لنقطة تل النحاس والمطلة على الداخل الفلسطيني، ثم جرى تداولها في سائر قرى الشريط، وما لبثت أن انتقلت إلى سواها.

ولقد تقصدت البدء بالحدثين – على بساطتهما – لأن لكل منهما دلالته.

فلماذا هنا «امور ما إلنا دخل فيها» وهناك «أنا الذي يقول نعم أو لا في كل أمر»؟ أي لماذا هنا جناب الرائد، هو القناع وهناك لا حاجة لأن يكون جنابه قناعاً، فالاحتلال احتلال ومكشوف تماماً؟